قيمة العجز

في المتسولين والضعفاء

سيصدمك هذا العنوان ايها القارىء كائناً ما كان نوع الثقافة التي تثقفتها والمحيط الذي درجت فيه . فان كنت من الواقفين على النظريات الاقتصادية يتبادر الى ذهنك مقدار الخسارة التي تتحملها الامة في قوة الانتاج من جراء وجود هذه الفئة العاطلة التي بدل ان تزيد ثروة الامة تنقصها . وان كنت من رجال الامن تذكر ما لاقيته وما قصّه عليك الرفاق من وقائع المتسولين واخبارهم وما يأتونهُ من ضروب الحيل وصروف المكر ليتجنبوا مطاردتهم من رجال الامن الذين يجدُّون في تنفيرهم من الشوارع وذودهم عن الاماكن العامّة لانهم يعتبرونهم قذًى في عين المدنية يجب الأ تراه اعين المارّة . وان كنت من قراء الروايات يحضرك عدد من المؤامرات التي يحوك خيوطها في سواد الليل اناس زريُّو الملبس قبيحو المنظر يجولون نهاراً مقوّسي الظهور دامعي الاعين معصوبي الرؤوس يستندون الاكف من اجل بلغة من الطعام او نهلة من الشراب . وان كنت ممن يلذ لهم حديث العجائز تتذكر ما كانت تقصه عليك جدتك من احاديث الشطّار من المتسوّلين الذين يفرغون عصيّهم ليودعوها ما جمعوه من القطع الذهبية ، او يضعون الخرق البالية على ظهورهم لتظهر حدباء وبذلك يستدرُّون جود الناس وينالون عطفهم . وان كنت من قراء الصحف فسيتبادر الى ذهنك اسماء كثير من المتسولين الذين كانوا يعيشون عيشة الفاقة والتقتير ولكن حينما ماتوا وُجدت وراءهم بدر الاموال فكأنهم كانوا معارف للتوفير يحشدون الاموال بكل حرص لتوزع كلها في النهاية على مستحقيها . سوف تذكر هذا وغيره مما علق بذهنك او وقع تحت شهودك من اخبار المتسولين ووقائعهم ، ولكن على فرض ان ذلك صحيح لا شبهة عليه ولا ريب فيه ألا يبقى للمتسولين والضعفاء ما يشفع لهم ويجعل لوجودهم معنى في الحياة ؟

***

انت متوسط الحال او غني ايها القارىء ولذا فأنت آمن على مستقبلك ومستقبل بنيك الى حدٍّ ما . ولكن الم يخطر لك ببال ان تقف يوماً وتسأل الى اي حدٍّ انت مدين لمتسولين بغنائك ورفاهك سؤال غريب ؟ ولكن ما كل غريب من الاسئلة يستحق الاهمال . لا اود ان اناقشك في كيف حصّلت غناك واي المسالك سلكت حتى اثريت ، ولا اود ان اذكرك بان كل

صحفة تزاد على خوانك قد يقابلها نقص في عدد الصحاف على خوان غيرك ، وانك قد تكون صعدت سلّم الثراء ونلت ما نلتهُ من توفيق على اشلاء الكثيرين ممن دستهم في سيرك السريع كالحوت الذي يربي سمنته الفاحشة على التغذي بصغار السمك — لا اود ان انافسك في هذا فان الله وحده يعلم ذلك وسيكون لهُ معك شأن في اليوم الاخير . انما اود ان اسألك الى اي مدى انت مدين، في الاستمتاع بثروتك الزاهية — لا في جمعها ، الى المعوزين وقارعي عتبات البيوت ؟

***

يعرّف علماء الاقتصاد الثروة بانها مجموعة من المتع واللذائذ . فاذا كان هذا معنى الثروة فهل يزيدها او ينقصها المعوزون والمتسولون ؟

الليل قرّ والعواصف تزمجر في الخارج والرياح تعوي كأنها الذئاب تروم طعاماً والمطر يهمي والرعود تقصف وانت جالس بين بنيك امام موقدٍ مشبوب فتحمد الباري ان لك مثل هذا الموقد ومثل ما يظلّهُ من مسكن . ولكن يعجزك ان تتخيل حال من يتعرّض لهذه العناصر الهوج كيف يكون الاّ انك ، وانت في هذا ، يطرق سمعك عواء الكلب فتطلّ واذا شبح في الظلام يعالجهُ كلبك من ناحية والريح من ناحية اخرى وكلاهما يود ان يكون لهُ الحظ الاوفر مما ابقته عليه الكلاب والريح والزمن من بقية رداء . تراهُ فاذا هو يقاتل قتال المستميت ليخلّص رداءهُ من ذينك الوحشين ، لانهُ يعلم ان بين تخليصه الرداء منهما او تسليمه لهما الحياة والموت . ويتخطى عتبة بيتك دون استئذان ، لان شراسة الكلب وعنف الريح وقساوة البرد لم تدع لهُ ليستأذن . هو داخلٌ عليك شئت ام أبيت

هوذا مقياس صحيح للشقاء ايها الغني يقف امامك لتقيس عليهِ مقدار سعادتك . هذه هي درجة الصفر فانظر الى اية درجة ترتفع انت عنها . هوذا جسمٌ يرتعش ارتعاش الخرق البالية في مهب الريح — جسمٌ عارٍ يكسوه البرد الحرة كما تكسو النار وجوه بنيك الحمرة ، ولكن ثمة فرق بين الحمرتين . هوذا نفس مضطربة مشردة ترنو اليك متوسلة ضارعة فاما ان تعيدها الى قبضة مطاردِيها او ان ترأف فتدنيها من موقدك فتهدأ اعصابها المرتعشة وتذوق لذة الاطمئنان بعد الابتعاد عن الخطر . انك لا تستطيع ان تتصوّر معنى الدفء تصوراً صحيحاً قويًّا ولا تستطيع ان تتصوّر معنى الاطمئنان بالابتعاد عن مصادر الهلاك الاّ متى تنظر الى مخلوق كهذا تجدُ جميع العناصر في طلابهِ كأن لها ثأراً عنده . اوتضن عليهِ بعد هذا بقليل من عطفك وحنانك ؟ انهُ دفع ثمن ذلك من جسمهِ ونفسهِ

ولا يعجزك ايها القارىء — اذا شئت وكنت ممن يعنيهم وقع الحوادث اليومية ان ينظروا

الى غير تقويمهم — ان نحضر لنفسك غير هذه الصورة من صور الشقاء العديدة

وقد تسأل : هل هذا صحيح ؟ هل نحن نعطف — او يجب ان نعطف — على الحرمان والضعف لانهما يستخفان لنا قوتنا النسبية ويبرزان لنا ما نحن متمتعون به من متع ولذات ايراراً قويًّا ؟ هل نحن نعطف على الجياع لاننا شباع ونعطف على المرضى لاننا أصحاء ونعطف على العارين لاننا كاسين ونعطف على الصغار لاننا كبار ونعطف على الحيوانات عديمة الأذى لاننا نستطيع ان نؤذي ونعطف على مكفوفي البصر لاننا مبصرون ؟؟ هذه أسئلة تدير الرأس حقًّا اذا حاول المرء ان يجيب عنها اجابة ترضي جميع نواحي العقل وتصدُّ كل اعتراض. ولكننا نودُّ ان نسأل القارىء بدورنا بضعة أسئلة وليجب هو نفسه عنها كما يشاء

***

لماذا لا يعطف السقيم على السقيم عطف الصحيح على السقيم ؟ لماذا لا يعطف الاعرج على الاعرج عطف السليم على الأعرج ؟ لماذا نعطف على ابنائنا الصغار ويقلُّ هذا العطف كلما كبروا وازدادوا قوة الى ان يجيء يوم يصبح نظرنا اليهم نظر الند للند ؟ لماذا يلذُّ لنا لذة يخالطها شيء من العطف والأسى ان نرى ذا القوة وذا الأذى مسلوب وسائل القوة والأذى ؟ لماذا تنبسط اكفنا للمتسول الصموت المنكسر النظر أكثر مما تنبسط للسائل الملحاح شديد النبرات ؟

قد تقول ان فلسفتك هذه أيها الكاتب — ان صحَّ ان ندعوها فلسفة — لا تصدق الاَّ على اوساط الناس ممن تربي الانانية فيهم على عواطف الايثار ، فهم حتى في ممارستهم للفضيلة لا ينظرون الاَّ الى نفعهم الخاص سواء شعروا بذلك ام لم يشعروا . ولست احاول ان اردَّ هذا الاعتراض فيكفيني ان تسلم معي ان كلامي ينطبق على اوساط الناس (واوساط الناس هم الاكثرية دائماً) . الاَّ اني اود أن انبهك تنبيهاً يسيراً — واوجو ان لا يزعزع ايمانك — وهو ان تنظر من الآن وصاعداً الى فضائلنا البشرية الزاهية نظراً غير الذي تعوَّدت . لا تنظر الى الاب الذي يحرم نفسه لذة العيش ليرسل ابنه الى المدرسة كأب همُّه الأوحد نفع ابنهُ . ان هذا الاب بالطبع يحب ابنه ولكنهُ يحب الخلود ايضاً . ولا تنظر الى اعمال روكفلر واضرابه كاعمال البر وخدمة البشرية المتألقة فقط : ان روكفلر — مثلك ومثلي — يحب الذكر الحسن مثل حبِّه للبشر . والجندي الذي يستقبل بثغر باسم وصدر رحب رصاص البنادق وأطراف الحراب ليس همُّه الوحيد خدمة الوطن والذب عن حياضه . انه يحب وطنه ولكنه يحب ان يعز نفسهُ أيضاً . لا تقل ان هذا الجندي لا يأمل شيئاً من الشهرة بالاستبسال لان ما يحدثهُ من امواج صغيرة في سير المعركة يتلاشى في موجة النصر العام . ان جنودنا يكفيه ان يراهُ

اثنان أو ثلاثة من رفاقه بين فكي الموت في مقدمة الصفوف . لا تنظر الى هذه الامور نظراً ماديًّا بل فكر بما يكون وراءها من نوازع وامال قد تكون خافية حتى على أصحابها

والآن لست ادري اذا كنت اقنعتك بقيمة الضعفاء العاجزين والمتسولين — مهما ضؤلت هذه القيمة — من هذه الناحية — ناحية ابرازهم ما نحن عليه من قوة وما نحن متمتعون به من لذة ابرازاً جليًّا . انك لا تستطيع ان تتخيل لذة الصحة كما لو مرضت او شاهدت ما يفعله المرض في غيرك ومن يدري كيف تكون لذة التمتع بالراحة — مهما اوتي من سعة الخيال — اذا لم يذق ألم التعب او يشاهد آثاره على غيره ؟ ان الضد يظهر حسنه او قبحه الضد . ومن هنا قال الحكماء لا سعادة بدون شقاء

***

ولا ننسى ما يفعله منظر الشقاء والعازة في الآخرين من الايحاء لنا بالقناعة واحساس الرضى باحوالنا الراهنة . ففي سنوات الجوع يشعر من يحصل على الكفاف بمقدار من السعادة لا يشعر به متوسط الحال في سني الرخاء . وما هذا الا لأن الناس لا يهمهم في الغالب قيمة ثرواتهم المطلقة بل قيمتها النسبية — أي كم تزيد ثرواتهم عن ثروات غيرهم . وهذا في الغالب يجعل الناس يقتنون أشياء لا حاجة لهم بها . انما يقتنونها ليتميزوا بها عن غيرهم . فالتنافس هو رائد الناس في حشدهم للأموال لا الحاجة . ومن هنا لا يشبع المثرون من جمع الأموال مهما زادت عن الحد الذي ييسر لهم التمتع بكل ما يشتهون

ولكن هل كل قيمة الضعف — اذ سلمت معي ان للضعف قيمة — هي في هذه الناحية الضيقة فقط ؟ اليس لوجود الضعفاء القهري بيننا غير هذا النفع المادي الذي اذا احببنا ان نجزيهم عليه جردنا فضيلة الرحمة مما يميزها من حب الخير لاجل الخير ؟

قد تكون ايها القارىء من تلاميذ نيتشه ، ولذا فأنت تعتقد ان العطف على الضعيف جريمة لا تغتفر . فاذا كنت من هذه الفئة فلا شأن لنا معك من الآن ولك ان تطوي الصحيفة حيث انت فلا تفت على نفسك . ولكني على فرض انك من الفئة الاخرى التي لا تزال تقيم وزناً لفضيلة الرأفة نسوق اليك بقية هذا الحديث الذي نرغب ان نظهر فيه ما للضعفاء من فضل في تغذية هذه العاطفة الشريفة

***

اجتمعت بشاب عاد حديثاً من اميركا بعد ان قضى هناك سبعة عشر عاماً . فكان مما حدثنا به موضوع الازمة التجارية وضيق الحال وركود الاعمال مدللاً على ذلك بأن عشرة ملايين او تزيد من العمال بلا عمل في الولايات المتحدة . ولكن ليس هذا المهم في حديثه فان مثل هذا يحدث في كل بلد صناعي . انما المهم ان هذا الشاب كان يتكلم بصيغة قوية من الجزم

والتوكيد ان المرء قد يجوع في اميركا ويضطر الى طرق الابواب ، ولكن قد يأتي على قائمة طويلة من اسماء القديسين والاولياء ويتوسل بكل الملائكة والانبياء دون ان تناله بلغة من الطعام. واذا اعتاد الحيل ليتال مايسد به الرمق يعمد الى حيلة يعرفها جيداً متشردو الاميركان وهي ان يتشاجر وأحد الناس في الشارع او يضرب بقبضة يده على زجاج احد المحلات فلا يعدم عندها ليلة او ليلتين او اسبوعاً . وان عظم الذنب شهراً ، يقضيها في السجن حيث ينال طعاماً لم يكن ليحصل عليه بغير هذه الطريقة

قصّ عليّ هذا الشاب ما قصّ فخامرني الشك في حديثه . فرحت اسأل غيره ممن عادوا حديثاً من اميركا . فكان مجمل كلامهم مطابقاً لكلامه على العموم . فلم يسعني عندها الا التفكير في منشأ هذه الظاهرة الغريبة . الشعب الاميركي الذي اشتهر بالبذل وعمت عطاياه الشرق والمغرب يضن على ابنائه بما يقصي عنهم آلام الجوع ؟ ! ما معنى هذا التناقض ، قلت ان الشعب الاميركي شعب عملي يكره ان يضيع اقل جهد على غير الانتاج. ولذا فالمتسولون قد هم طبقة مكروهة لا تثير عطفهم. ولكني ما كدت اظفر بهذا التعليل حتى اخذت تتزاحم عليّ الاعتراضات ، ووجدت اخيراً انهُ تعليل ضعيف وان هناك نواحي اخرى لهذه المسألة لا تخضع له . فحينما ينتشح اكتتاب لاعالة الاطفال الفقراء في روسيا او في الصين لا يحجم الاميركي ان يبسط كفه للمساعدة . فهل يخرج الروس والصينيون عن حد كونهم مسترفدين بالجملة بينما المتسول الاميركي لا يستعطي الا مفرداً ؟

التعليل هو هذا ، وقد يقنعك وقد لا يقنعك

***

في اميركا مستشفيات كثيرة تضم اليها المرضى ودور لايواء العجزة وملاجئ خيرية للاطفال الفقراء . ولذا فهؤلاء الناس الذين تقع عيوننا عليهم في شوارعنا الشرقية — ذلك الذي شُلّت رجلاه فاضطر الى الزحف على يديه ليدنو منك فينال بعض ما تجود به ، وتلك الأم المكرة النظرات التي تحمل طفلاً قد عصر آخر نقطة من الحليب في صدرها ، وذلك الشيخ الذي يحمله بقية رجلين وعصاً اذا استعملها لينوب الكلام بها عن نفسه تحمله رجلاه . فهو لذلك يفضل احياناً ان يدع الكلاب تنال منه من ان يعتمد على رجليه وحدها — هؤلاء وامثالهم نراهم في شوارعنا الشرقية . ولكنهم ليسوا من الكثرة بحيث يصبح منظرهم عادياً لدينا فلا نعود نتأثر بمنظر البؤس والشقاء وقد لا تقع عينك على امثال هؤلاء مرة في الاسبوع او في الشهر فيكون منظرهم باعثاً في اذكاء ما كمن فينا من رأفة وحنان . انك لا تستطيع ان تكون رئيفاً اذا لم تجد من ترأف به ولا تعرف معنى البذل اذا لم تجد من تبذل له العطاء . فابناء

البؤس — بما يقدمونه من ميولهم ونفوسهم على مذبح البشرية العام — مدرسة تتعلم فيها معنى الرأفة والعطف

وقد تتهمني ايها القارىء بالعاطفية الشديدة وبأنني احاول ان اصنع من الامر الصغير شيئاً كبيراً

لك ان تفعل ذلك ، ولكن أود منك ان تصوّر لنفسك كيف يكون حال العالم فيما لو انتزعت من صدور الناس الاحساس بالتعاطف والشعور بشقاء الغير . اذا كان خيالك بحيث لا يساعدك على ذلك فما عليك الاّ ان ترجع ببصرك الى سنوات الحرب الكبرى لترى ماذا كان يعني تجرّد الناس من عاطفة الرحمة

ولك ان تعترض اعتراضاً آخر وهو : لماذا يشعر الاميركي بالعطف على الغير حينما يصله صدى صراخه ولا يشعر بصراخ الضعف في بلاده ، ان جانباً من الرد على هذا الاعتراض قد تقدّم وهو ان الضعف والشقاء في اميركا يختفيان بقدر المستطاع عن عيون الناس في المستشفيات والملاجىء ودور العجزة ، فلا يجد الاميركي ما يزخر نفسه بالألم ، وهو ليس له من الوقت ما يستعمل فيه خياله في استحضار صور الشقاء

اما الجانب الآخر من الرد على هذا الاعتراض فهو — في معتقدنا — ان الذين يقومون بجمع الاكتتابات يُختارون في الغالب من النساء والخطباء الملاسن الذين يستطيعون ان يتلاعبوا بسهولة بعواطف الجمهور تدعمهم في ذلك الصحافة العامة . ولذا فالاميركي له ما يجعله يتصور الشقاء في البلدان الاجنبية بوضوح بينما هو لا يجد ما يعينه على مثل ذلك في بلاده. ذلك انهم هناك يعالجون مشاكلهم معالجة محلية ، فلاتقام الحفلات الخطابية العامة ولاتتواطأ الصحف على تغذية هذه الحفلات الاّ في الحوادث الكبيرة التي تستدعي تضافر الامة جمعاء كما حدث لما فاض المسيسبي منذ سنوات

***

هذه سوانح من الافكار املاها منظر الشقاء في الضعفاء والمتسولين وغيرهم ممن خدعهم العالم والطبيعة عن نصيبهم في الحياة

وأخيراً ارجو الاّ يخامرك ايها القارىء انني استحسن وجود الضعف والشقاء لانهما يمنحان لنا القوة والسعادة ولانهما يوحيان لنا باحساس الرضى والقناعة ويعلماننا معنى التعاطف والرأفة انني اول من يتمنى ان لا يبقى في العالم شقي واحد . ولكن ما دام ابناء الضعف والشقاء بيننا وما دمنا عاجزين عن مداواة آلامهم فيخلق بنا ان نعرف لهم قدرهم وقيمتهم في الحياة

شرقي الاردن اديب عباسي